الفنون

الفن المصرى

العقيدة الدينية أصل الباعث على الفن

للدكتور احمد موسى

انظر إلى خريطة وادى النيل الطبيعية ، تجد أن مصر واد جميل منبسط ، لا تتخلله ارتفاعات ولا انخفاضات خصوصاً فى المناطق المأهولة بالسكان ، أما الأمطار فهى نادرة فيه ، فضلا عن أن الشمس تسطع عليه طوال أيام السنة

وتفكير الناس وتكوين إحساسهم وليد البيئة التى يعيشون فيها . ولما كان الفن وليد دقة الإحساس وسمو التفكير ، وجب أن يكون الفن المصرى بسيطا سهلا ، نظراً لبساطة الخيال المصرى ولين شاعريته ، على عكس الخيال الاغريق مثلا

وكان المصرى ولا يزال قليل الاستمتاع بجمال الطبيعة لندرة تغيرها ، على حين نرى الاغريق عظيم الاحساس بالجمال والاستمتاع به سريع التأثر بمظاهر الطبيعة المتقلبة ، كثير السعى والبحث وراء ما فيها من جمال وفن . كل هذا راجع إلى الاختلاف الطبيعى بين مصر وهى البلاد المنبسطه المكونة من قطعة واحدة غير منفصلة ، وبين اليونان وهى جزائر سواحلها كلها تضاريس ، فضلا عن كثرة الارتفاعات والانخفاضات فى سطحها

وقد أوضحت شيئا يسيراً عن الفن المصرى قبل التاريخ ، وقلت إن الالتفات إلى الدين كان قبيل عهد الأسرات ، وأن هذا الالتفات نما وازداد حتى عصر مينا ، الذى وحد بين الوجهين البحرى والقبلى مكونا مملكة واحدة

وإذا استطعنا أن نفهم شيئا عن تطور العقيدة الدينية ، فإنه يمكننا أن ندرك الفن المصرى إلى حد الاستمتاع

أنعم المصريون النظر فى الموجودات والمرئيات ، واتجهوا بنظرهم إلى السماء ، فتصور بعضهم أن القبة السماوية شيء أشبه ببقرة كبيرة رأسها متجه نحو الغرب ، وأن بلادهم بين أرجلها ، كما تخيلوا أن النجوم لا تخرج عن كونها زينة تتحلى بها

وتصور غيرهم أن السماء على هيئة امرأة انحنت متجهة بيديها ورأسها نحو الغرب ، وبأرجلها نحو الشرق ، وأن النجوم حلى منثورة على بطنها وصدرها

وإذا فكرنا قليلا نجد التشابه فى الفكرة عظيما ، ولا سيما وأن الذين تخيلوا السماء على هيئة بقرة ظنوا أن الشمس تولد (تشرق) على هيئة عجلة صغيرة ؛ وأما الآخرون الذين تخيلوها على شكل امرأة فقد ظنوا أنها تشرق على هيئة طفلة تسير من الشرق إلى الغرب ، فلا تلبث أن تصير عجوزاً عند غروبها

ظل الحال كذلك حتى اتصل أهل مصر العليا بأهل مصر السفلى وتم التعارف بينهم ، وتبادلوا التجارة وتفاهموا فى شؤون الحياة وفى شؤون الدين

وكانت نتيجة هذا التعارف والتفاهم أن وجدنا أن هناك من رأوا الصقر يطير بسرعة ، فتخيلوا الشمس مثله ، تطير بجناحين من الشرق إلى الغرب . وكان أثر هذا الخيال عميقاً فى الفن المصرى ، فترى الشمس قد رسمت بجناحين فى مناسبات مختلفة

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، بل نظر المصرى إلى الماديات وأولها وادى النيل ، فتخيله رجلا منبسطاً على الأرض ، ظهره إلى السماء وعليه نمت النباتات ، وعاش الانسان والحيوان مستمدين الحياة من الشمس . وظنوا أن الدنيا تبدأ حيث يبدأ النيل من ذلك المحيط اللانهائى جنوباً ، وتنتهى حيث يصب شمالا

واعتقدوا أن هناك آلهة للماء وللأرض وللهواء ، وتوسعوا فى تصوراتهم فجعلوا للحياة الها وللموت آخر ، وللمسرات والحب غيرها وهكذا

وكانت عبادتهم للشمس قوية باعتبارها مصدر الحياة والنور ، فاختاروا لها مدينة خاصة أسموها عين شمس (هليوبوليس) كما أسموا الشمس (رع) عند الشروق و (اتوم) عند الغروب .

ونظراً لدقة ملاحظتهم للقمر وإعجابهم بانتظام سيره الزمنى ، جعلوا منه منظما لزرعهم واعتبروه الها للعلوم والآداب ، واتخذوا بلدة الأشمونين (قرية من المنيا) مقراً لعبادته

ورمزوا للسماء ببقرة رسموها فى معبد درندرة (بالقرب من قنا) وبقطة فى صا الحجر (بالقرب من كفر الزيات) وبلبوة فى ممفيس (بالقرب من البدرشين)

وكانت مصوراتهم التى رمزوا بها للآلهة بسيطة فى أول الأمر ، مما يدل على بساطة معيشتهم فى ذلك الحين ، كما أن رسوماتهم لها لا تدل على أنهم أحبوا حيواناتهم حباً عظيما جعلهم يصورون رؤوس هذه الآلهة بصور تلك الحيوانات نفسها عند تدهور المدنية المصرية

وإذا دهشنا للعقلية المصرية من ناحية العقيدة الدينية ، فاننا لا نندهش عند ما نجد الكهنة يتركونهم مستسلمين فى عقائدهم حتى بذلك يدوم لهم السلطان

وكانت هذه العقيدة ، رغماً عن عدم انسجامها مع العقلية المصرية خير دافع للفن المصرى بل وإلى الحضارة المصرية إجمالا ، فكل ماوصل إليه المصريون من أبهة وعظمة كان عن طريق هذه العقيدة ، وكل ما تركوه من آثارها لا يخرج عما شيدوه للدين

فانشاؤهم المقابر والاهرام والمعابد ، كل هذا لم يكن إلا لرسوخ العقيدة الدينية فى أنفسهم . ولا يعنينا الآن وصف شىء من مقابرهم أو أهراماتهم ؛ أما معابدهم فكانت إجمالا عبارة عن حوش محدود بحوائط تنتهى بصالة مستطيلة ذات أعمدة ، وعلى يمينها ويسارها غرف لحفظ الأثاث والأدوات والهدايا ، وضمن هذه الغرف مساكن الخدم

وخصصوا غرفة وضعوا فى وسطها حجراً من الجرانيت المنحوت جيدا ، جعلوه قاعدة لتمثال المعبود الذى كان أحيانا من الخشب المطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وبارتفاع يتراوح بين نصف متر ومترين

وكانت احتفالاتهم الدينية فى أول الأمر بسيطة ، ولكنها أخذت شكلا عظيما فيما بعد ، فبدأوا يقيمون حفلاتهم الدينية التى كانت تتخللها الموسيقى والغناء والرقص

وقام الكل بتموين هذه المعابد بالمأكل والمشرب ، ووصل بهم الحال إلى جعل الاشتراك فى هذه الاحتفالات إجباريا ، فاشتركت البلاد من أقصاها إلى أدناها ، وقدموا هداياهم إرضاء للمعبود لينالوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة . وكان فرعون ، وهو الحاكم المطلق للبلاد يقوم علاوة على مهمته المدنية بمهمة الكاهن الأكبر ، وقد عين لنفسه نائبا فى كل معبد ، يقوم بتقديم القربان للمعبود : وبرئاسة المصلين الذين يدعون لفرعون بدوام الملك والأبهة . وكان من شأن الكاهن أن يقوم بالمحافظة على المعبد بمشتملاته وبمراقبة حساباته من إيراد ومصروفات

من كل هذا نرى أن الدين المصرى دفع المصريين فى إخلاصهم المتناهى له ، إلى بناء المعابد والاهتمام بشأنها وتنميتها وزخرفتها . وكل هذا لا يخرج عن كونه الفن المصرى إجمالا ، لأننا إذا ألقينا النظر على وادى النيل كله ، وتأملنا ما تركه المصريون قديما ، لا نجد إلا أهراما ومعابد ومدافن ، وما بداخلها لا يخرج أيضا عن متروكات ارتبطت بحياة الناس أو بموتهم

ويتلخص تاريخ الفن المصرى كدراسة خاصة ، فى التوسع فى وصف هذه الآثار ووضع قواعد لنماذجها وتطوراتها ورقيها وانحطاطها ، وعلاقة ذلك بالحياة الاجتماعية فى ذلك الحين ، مع الاستعانة بما وجد على الجدران والسقف من كتابات ونقوش وزخارف ، وما وجد من تماثيل وتحف ومحفوظات دلت بدرسها على ما وصلت إليه المدنية المصرية من مستوى يجعلها وحيدة فريدة بذاتها بين أمم العالم

ولاعتقاد المصريين فى عودة الحياة إلى الجسم بعد الموت (البعث) فضل عظيم فى إيجاد التقدير الهائل نحو الموتى الذين تمتعوا أثناء حياتهم بمشاهدة مقابرهم التى سيدفنون بها بعد موتهم

وفكرة شروق الشمس واعتقادهم بأنها تأتى معها بالحياة ، وفكرة غروبها واعتقادهم بانها تذهب ومعها الحياة ، جعلتهم يدفنون موتاهم على الضفة الغربية للنيل فى معظم الأحيان ، ليمثلوا بذلك الموت فى أظهر معانيه

وكانت هناك عقائد خاصة بحال الروح بعد الموت ؛ فمن المصريين من اعتقد أنها تسكن عالماً آخر أسفل هذه الدنيا ؛ ومنهم من ظنها تتحول إلى طير يطير بعد مفارقة الجسم إلى قرص الشمس ليعيش بجواره

وحرصهم على جثث موتاهم التى ستعود إليها الروح فى وقت ما ، جعلهم يمهرون فى فن التحنيط ، كما تفننوا فى طريقة المحافظة على الموميات ، فتراهم دفنوها دفناً منيعاً ، بعد وضعها فى تابوت من الخشب وضع فى تابوت آخر من الصوان أو الحجر الجيرى . وكانت مدافنهم على شكل الأهرام أو على شكل المصاطب أو فى جبانات عملت خصيصا

وكان الغرض من التحصين الحيلولة بين اللصوص وبين العبث بالجثث ، وبما دفنوه معها من أدوات وجواهر وتماثيل الخ .

واشتملت حوائط غرف الأهرام والمصاطب والمقابر على كتابات ونقوش ، كما اشتملت على رسومات تبين صاحب القبر يراقب الخدم أثناء اشتغالهم بخدمته والمحافظة على راحته بعد موته .

وكانت العناية ببناء المقابر فائقة فى كل أجزائها التكوينية والشكلية ، وسهر نفر معين من الناس للمحافظة عليها نظير أجر معلوم حصلوا عليه من أصحابها ؟

احمد موسى